المجلة العلمية لكلية الآداب مج 10، ع 2 (2021) 103 -120
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

الذات الشاكية عند المتنبي

رضا مجدي محمد الدسوقي
طالب دكتوراه – قسم اللغة العربية - كلية الآداب – جامعة دمياط.

المستخلص

لقد بدأ في حياة أبي الطيب في مختلف مراحلها حالات من التوجع والحزن والشكوى مما كان له أثر كبير في التغير المستمر في أطوار حياته مما جعله دائما في صراع مع منغصات الحياة ومحاربة الآلام والأحزان، وكانت هذه الحوادث دافعة له للوصول إلى أحلامه التي كان يسعى لها وحقق بعضا منها، وشكوى المتنبي قد تمثلت في شكوى الأمكنة وخلوها من الأحبة، وشكوى الزمان والليل والشيب والمرض.

فمن شكواه للمكان: يظهر المتنبي نفسيته الحزينة على فراق الأحبة للطلل، فإن كان هذا الطلل يملأ نفسيته غما وحزنا وضيقاً لارتحال الأحبة عنه، إلى أنه في الوقت ذاته يحن ويحب آثار المحبوبة فهو يفدي هذا الطلل الخالي من أحبته بروحه لأنه أثر من آثارهم ومقر الأيام والليالي المبهجة السعيدة، فقد كانت محبوبته تعيش فيه وتسكن وكذا لو خرجت كانت تعود إليه كما تذهب الشمس لغروبها وتعود لشروقها.

ومن شكواه للزمان: يرى المتنبي أن زمانه زمن عجيب فهو زمن أن تركك الناس بدون تقبيح أو تجريح فهذا إحسان منهم وإجمال، وهذا دلالة على كثرة إساءة المسيئين للمتنبي في هذا الزمان.

ومن شكواه لليل: يرى المتنبي أن ليله طويل على الدوام فهو مختلف عن ليل الناس الذي يطول ويقصر حسب الأزمنة والفصول، فهو ليل عاشق طار من جفنه النوم لبعد المحبوبة عنه وتعلق قلبه بها.

ومن شكواه للشيب: بدا تأثر المتنبي بالشيب بحديثه عنه لأنه علامة من علامات تبدل أحوال المرء من الصحة إلى المرض ومن القوة إلى الضعف فينظر المتنبي إلى الأيام والشباب والشيب نظرة المتأسف المتحسر على أيامه وشبابه الذيْن مضيا.

ومن شكواه المرض: اشتكى من مرضى الحمى وأخذ يبث شكواه وألامه وأوجاعه منها بصورة المحبة التي تعشق حبيبها عشقا بالغاً ولاتريد مفارقته ولا الرحيل عنه إذا أتته إلا بصعوبة فائقة.

الكلمات المفتاحية:
المتنبي، الشعر العربي

تاريخ المقالة:
تاريخ اســـــتلام المقالـــة: 29 مارس 2021
تاريخ استلام النسخة النهائية: 19 مايو 2021
تاريخ قبـــول المقالـــــة: 29 مايو 2021

1 المقدمة

الحمد لله الذي كرَّم الإنسان وعلمه البيان فله سبحانه وتعالى جزيل الشكر وعظيم الامتنان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أرجو بها الفوز في يوم التناد، وأدخرها سلم نجاةٍ في يوم الميعاد، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفصح من نطق بالضاد، الذي بين للأمة سبل الهدى والرشاد. فصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الاهتداء ومن قفا إثرهم وترسم خطاهم.

لقد اتخذ الشـــاعر العربي منذ القدم في الغالب قصـــيدته للتعبير عن مشـاعره وأحاسـيسـه وتصـوير عواطفه وانفعالاته النفسـية الذاتية بطريقة بعيدة عن المباشرة والسذاجة ، إذ كان يتوسل بما حوله من الأشياء لإبراز مكامن شـعوره ،وأعماق عواطفه ، واسـتبطان لطائف ودقائق أحاسـيسـه نائيا مااستطاع سبيلا عن الغموض والإبهام وكثيرا ماكان يستنطق ماحوله من المظاهر الطبيعية والمتحركة والصامتة ، لتشاركه ألامه وأماله ويعدّ ابوالطيب المتنبي واحدًا من أغزر شـــعراء العربيّة إنتاجًا، فإنّه يعتبر كذلك واحدًا من أبرزهم اهتمامًا بالجانب الوجدانيّ حيث يأتي الاتّجاه الوجدانيّ في شـعر المتنبى باعتباره قيمة روحيّة تتمثّل في ترجمة ذات الشّاعر إ زاء ما يحدث حولها ومدى استجابة هذه الذّات لمظاهر الجمال بأشـــكالها المختلفة ومن أبرز ماتحدث به المتنبي عن الوجدان ماكان من شـــكواه من خلو الأماكن من الأحبة وشـــكوى الزمان والليل والشـــيب والمرض فأثرت هذه الأشـياء في ذات المتنبي وجعلته كثير المعايشـة مع نفسـه يحادثها وتحادثه، ومن ثم شاع في شعره الكثير من الحديث النفسي الذي يصف فيه مشاعره وأحاسيسه والتي تمثلت في الشكوى.

الشـكوى بمفهومها حالة شـعورية تنتاب الإنسـان الذي يجد نفسـه أمام ظُلمٍ أو عذاب أو أسـقام، فوجد في اللغة ملاذاً يعبر فيه من خلال ألفاظها عما في دواخل نفسـه وأنين شـكواه ..قال تعالى على لسـان يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

فالشـكوى والحزن والبث حالات من حالات الإنسـان تتكون بتأثيرات داخلية أوخارجية لترسـم الضـعف والانكسـار الذي يصـيب الإنسـان طالما أنه يحيا على هذه الأرض، لذا صـارت الشـكوى عاطفة قوامها الإحسـاس بالظلم والحرمان، وباعث الشـكوى قد يكون إحسـاس الإنسـان بالعجز عن الوصول أوتحقيق مايطمح إليه، لذا تصبح الشكوى متنفسه الوحيد ونافذته

إلى البوح الخارجي العاكس للألم الداخلي [1] ، وشكوى المتنبي قد تمثلت في شكوى الأمكنة وخلوها من الأحبة، وشكوى الزمان والليل والمرض والموت ونحوه.

2 منهج الدراسة

لقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي في دراسة شعر شكوى المتنبي واستخلاص الأبيات التي تبرز هذا الجانب لديه معتمدا على التفسير والنقد والاستنباط في بيان خصائصه وأسبابه من خلال التعمق في حياة الشاعر الاجتماعية ومن ثم تأثيرها في وجدانه وتتبع نفسية الشاعر والتغلغل في أغوارها وما تنطوي عليه من غرائز وعواطف ومكنونات أثرت في سلوكه فعبر عنها شعريا .

3 صعوبات البحث

قد واجهتني بعض الصعوبات في بداية طريقي، أهمها أن شرح ديوان المتنبي للواحدي يقع في أربع مجلدات ولايتيسر فيه البحث إلا بصعوبة، فألهمني الله أن أتتبع قصائد المتنبي في الدواوين الغير مشروحة وأوفقها مع شرح الواحدي لديون المتنبي معتمدا في التوثيق على شرح ديوان المتنبي للواحدي فكان التيسير من الله في إتمام البحث.

4 شكوى المكان

لقد بدأ في حياة أبي الطيب في مختلف مراحلها حالات من التوجع والحزن والشكوى مما كان له أثر كبير في التغير المستمر في أطوار حياته مما جعله دائما في صراع مع منغصات الحياة ومحاربة الآلام والأحزان، وكانت هذه الحوادث دافعة له للوصول إلى أحلامه التي كان يسعى لها وحقق بعضا منها ، ومن هذه الآلام التي أحس بها المتنبي ماكانت لها صلة بالزمان والمكان،فمن الشكوى المتعلقة بالمكان عنده قوله:

فَدَيْناكَ مِنْ رَبْعٍ وَإنْ زِدْتَنَا كرْبا فإنّكَ كنتَ الشرْقَ للشمسِ وَالغَرْبَا[2]

(1) محمد عبدالرضا قاسم، ثنائية الشكوى والتحدي في شعر المتنبي ، جامعة ميسان كلية القانون، ص5.

(2) المتنبي: ديوان شرح الواحدي ، تحقيق د. ياسين الأيوبي ، د. قصي الحسين ، دار الرائد العربي، بيروت ، لبنان ط1 1999م 1302/3(الطويل)

ففي هذا البيت يظهر المتنبي نفسيته الحزينة على فراق الأحبة للطلل، فإن كان هذا الطلل يملأ نفسيته غما وحزنا وضيقاً لارتحال الأحبة عنه، إلى أنه في الوقت ذاته يحن ويحب آثار المحبوبة فهو يفدي هذا الطلل الخالي من أحبته بروحه لأنه أثر من آثارهم ومقر الأيام والليالي المبهجة السعيدة، فقد كانت محبوبته تعيش فيه وتسكن وكذا لوخرجت كانت تعود إليه كما تذهب الشمس لغروبها وتعود لشروقها.

ثم يظل المتنبي في سرده بكاءه على الأطلال فيقول

وَكَيفَ عَرَفْنا رَسْـــــمَ مَنْ لم يدَعْ لَنا فُؤاداً لِعِرْفانِ الرّسومِ وَلا لُبّا

نَزَلْنَا عَنِ الأكوارِ نَمشِي كَرامَـــــــةً لمَنْ بَانَ عَنهُ أنْ نُلِمّ بهِ رَكْبَا[3]

يتعجب المتنبي كيف أنه لايزال يعرف آثار ديار محبوبته بعدما سلبت قلبه وعقله فأصبح فقيد القلب والعقل من آثار الفراق، ثم صور مشهد دخوله هذا الربع فلقد دخله مترجلا احتراماً وتقديراً لسكان الديار الذين رحلوا عنه.

ثم يتابع تصوير المكان الخالي من الأحبة من كل جهة فيقول:

نَذُمُّ السّحابَ الغُرَّ في فِعْلِهَا بِهِ وَنُـــعرِضُ عَنها كُلّما طَلَعتْ عَتْبَا

وَمن صَحِبَ الدّنيا طَوِيلاً تَقَلّبَتْ على عَيْنِهِ حتى يَرَى صِدْقَها كِذبَا[4]

فهو هنا يذم السحاب لأنه هو الذي غير ملامح الربع، وكلما ظهر السحاب وبان له أعرض المتنبي عنه معاتبا لما فعله بالأطلال، كذلك الدنيا كالســـحاب فهي تمتعنا أحيانا بزهرتها وزهوتها ثم تتغير علينا فتطرقنا بالمواجع والأحزان فمتاعها غرور، وصدقها فيه الكذب والزور.

ثم يظهر فقده للذة التي كان يجدها من قبل فراق الأحبة فيقول:

وَكيفَ التذاذي بالأصائِلِ وَالضّحَى إذا لم يَعُدْ ذاكَ النّسيمُ الذي هَبّا

ذكرْتُ بهِ وَصْـــلاً كأنْ لـم أفُزْ بِهِ وَعَيْشاً كأنّي كنتُ أقْطَعُهُ وَثْبـا[5]

(1) المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 3 /1303 (الطويل)

(2) نفسه 3 /1303 (الطويل)

(3) نفسه 3 /1304 (الطويل)

فهو يقول كيف يسعد ويستلذ بوقت الليل الهادئ، والضحى المنيرة المبهجة، في ذاك الجو والنسيم الجديد الذي ليس فيه محبوبته ثم يبين مدى حسرته وتفجعه على فراق محبوبته فأيامه التي قضاها معها انقضت وكأنها لم تكن وكأنه هو الذي قضاها مسرعا بالخطى ليتخطاها، وهذا الأحساس ظهر عنده بسبب ألم الفراق، فكأنه الليل طمس ضوء النهار حتى كأنه لم يكن.

ومن بكائه على الأطلال أيضا يقول:

دَمْعٌ جرَى فقضَى في الرَّبْعِ ما وجَبَا لأهلِهِ وشَفَى أنّى ولا كَرَبَا

عُجْنا فأذهَبَ ما أبْقَى الفِراقُ لَنا منَ العُقُولِ وما رَدّ الذي ذَهَبَا(6)

يتضح لنا من خلال هذين البيتين شدة وجده وحيرته من أمره بعد فراق أحبته، فيبدأ قصيدته أنه وفّى بدمعه وبكائه ماوجب لهم وشفى لوعته ووجده، ثم تراجع عن قوله وشعوره بأنه لم يوفّ حقهم بهذا الدمع ولم يشف وجده ولا حتى قرب من هذا الوفاء، لأنه حينما زار هذا الربع وتذكر الأحبة سلب منه بقية عقله، فكيف يرد هذا الفراق الذي ذهبا.

ثم يسترسل في سرد شكواه وآلامه فيقول:

سَقَيْتُهُ عَبَراتٍ ظَنّهَا مَطَراً سَوائِلاً من جُفُونٍ ظَنّها سُحُبَا

دارُ المُلِمّ لها طَيفٌ تَهَدّدَني لَيلاً فَما صَدَقتْ عَيني ولا كَذَبَا

أنْأيْتُهُ فَدَنا، أدْنَيْتُهُ فنَأى جَمّشْتُهُ فَنَبَا، قَبّلْتُهُ فأبَى

هامَ الفُؤادُ بأعرابِيّةٍ سَكَنَتْ لَيلاً فَما صَدَقتْ عَيني ولا كَذَبَا

بين المتنبي في هذه الأبيات أن دموعه التي ذرفت على فراق أحبته كانت كالمطر من كثرتها وغزارتها وجفونه كانت كسحب لها ، ثم يذكر أنه رأى طيفها في منامه لكنه لم يرو لوعته ووجده لأنه مناما وليس حقيقة ، وأنه لم اقترب منه ابتعد الطيف عنه ولم يمنحه ماأراد ، وكيف لها ذلك وهو عاشق لها هائم في حبها، فلقد سكنت قلبه بدون تعب ولامشقة ولم يكلفها شيئاً بذلك.

(4)المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 1 /494 (البسيط)

ومن بكائه على الأطلال قوله

بكَيتُ يا رَبْعُ حتى كِدْتُ أُبكيكَا وجُدْتُ بي وبدَمعي في مَغانيكَا

فعِمْ صَباحاً لقدْ هَيّجتَ لي طَرَباً لَيلاً فَما صَدَقتْ عَيني ولا كَذَبَا

أنْأيْتُهُ فَدَنا، أدْنَيْتُهُ فنـــــــأى وَارْدُدْ تَـــحِيّتَنَا إنّـــــا مُحَيـــــوكَا

بأيّ حُكْمِ زَمــانٍ صِرْتَ مُتـّخِذاً رِئْمَ الفَلا بَدَلاً من رِئْمِ أهليكَـــــا (7)

هنا يخاطب المتنبي الربع مخاطبة العقلاء فالمتنبي قد كثر بكاؤه على فراق أحبته لمنازلهم حتى كاد الربع أن يبكي لبكاء المتنبي وشدة وجده، ثم يحييه بتحية العرب المعروفة لأنه طربه بتذكره للأيام والليالي الســـعيدة التي قضـــاها مع الأحبة ثم يطلب من الربع أن يرد عليه تحيته وفاء منه على قضـــائه فيه أيامه الســـعيدة مع الأحبة، ثم ينتقل المتنبي من حالته الطربة السعيدة، إلى حالة أخرى بدت فيه الحسرة وشكوى الفراق واضحة لاتخاذ الربع الظباء ســـكانا له بدلا من أحبته الذين هجروا المكان، فمن لوعته وشدة وجده عاد باللوم على الربع لا من رحلوا.

ومن بكائه على الأطلال يقول:

لا تَحْسَبوا رَبعَكُمْ ولا طَلَلَهْ أوّلَ حَـــيٍّ فِراقُكـــمْ قَتـــلَهْ(8)

يصور المتنبي حال ارتحال الناس عن الطلل بأنهم قد قتلوه لأن حياته بعيشهم فيه وقتله بفراقهم له. يقول الواحدي "جعل كون الاحبة في الربع حياة له وارتحالهم عنه قتلا له وذلك إن الأمكنة إنما تحيى بالعمارة والسكان ولهذا يسمى البائر المهمل مواتا ويقال في ضد ذلك أحيا أرضا إذا عمرها فلما كان هذا مستعملا في الأمكنة جعل المتنبي خراب الربع وخلاءه عن السكان قتلا له"(9)

ثم يبين المتنبي أن الربع ليس أول قتيل فيقول:

قَد تَلِفَتْ قَبْلَهُ النـّفوسُ بـــكُمْ وأكثرَتْ في هَواكُمُ العَذَلَهْ

خَلا وفيـــهِ أهْلٌ وأوْحَشَنَـــا وفيهِ صِرْمٌ مُرَوّحٌ إبِـــلَهْ(10)

(2)المتنبي: ديوان بشرح الواحدي ص 343/1 (البسيط)

(1)المتنبي: ديوان بشرح الواحدي ص2 /1034(المنسرح)

(2)المتنبي: ديوان بشرح الواحدي ص2 /1034 (المنسرح)

(3)نفسه: ص 1035/2(المنسرح)

فبين المتنبي أن الأحبة قبل قتلهم الربع بهجرهم له قد قتلوا نفوس من أحبوهم وتعلقوا بهم وتركوهم للوم العواذل، ثم يبين المتنبي أن الربع أصبح خاليا حتى وإن كان سكن فيه أناس بعدهم إلا أنه صار خربا مقتولا لترك الأحبة له.

ثم يردف قائلاً:

لوْ سارَ ذاكَ الحَبيبُ عن فَلَكٍ ما رضيَ الشّمسَ بُرْجُهُ بَدَلَهْ

أُحِبّهُ والهَوَى وأدْؤرَهُ وكُلُّ حُبٍّ صَبابَةٌ ووَلَهْ

يَنصُرُها الغَيثُ وهيَ ظامِئَةٌ إلى سِواهُ وسُحْبُها هَطِلَهْ[11]

يظهر المتنبي مدى جمال ولطافة وملاحة المحبوب حتى أنه لوكان يسير في فلك من الأفلاك لم يرض هذا الفلك بالشمس بديلا منه، ثم يذكر حبه الشديد له حب الصبابة والوله، ثم يتحول إلى الأرض فيقول إن المطر يسقيها لكنها ظامئة للأحبة المرتحلين لا للمطر.

وهذه أبيات تستجلب الشفقة على المتنبي في رحيل أحبابه فيقول:

أجابَ دَمعي وما الدّاعي سوَى طَلَلِ دَعَا فَلَبّاهُ قَبلَ الرَّكبِ وَالإبِلِ

ظَلِلْتُ بَينَ أُصَيْحابي أُكَفْكِفُهُ وَظَلّ يَسفَحُ بَينَ العُذْرِ وَالعَذَلِ

أشكُو النّوَى ولهُمْ من عَبرَتي عجبٌ كذاكَ كنتُ وما أشكو سوَى الكِلَلِ

وَمَا صَبابَةُ مُشْتاقٍ على أمَلٍ مِنَ اللّقَاءِ كمُشْتَاقٍ بلا أمَلِ[12]

وضح لنا المتنبي أن دمعه قد سال منه قبل الركب وكذا قبل الإبل التى لها الحق أن تشاركه في الحزن والدمع على فراق الأحبة للطلل، فظل المتنبي يمسح دمعه المدرار على شفقة من بعض الركب وعذل الآخرين، فهو يشكو ألم الفراق وبعد الأحبة كما كان يبكي من قبل في هجرها فليس الأمر بجديد عليهَ فلما العجب، ثم يبين غذارة دمعه وشدة لوعته أنه لن يرى بعد ذلك محبوبته فلا أمل في ذلك فكيف يتساوى بمن يأمل برجوع أحبته.

ثم يردف قائلاً

(4)المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 2 /1036(المنسرح)

(1) المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 3 /1344(البسيط)

متى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيارَتَهَا لا يُتْحِفُوكَ بغَيرِ البِيضِ وَالأسَلِ

وَالهَجْرُ أقْتَلُ لي مِمّا أُراقِبـــــــهُ أنَا الغَريقُ فَما خَوْفي منَ البَلَلِ[13]

فهو يذكر أن محبوبته منيعة في أهلها، فلو زارها لن يجد إلا السيوف والرماح، ثم يبين أن هجرها له أشد عليه من القتل فهو في حالته تلك غريق يخشى البلل.

ومن ذلك أيضا حزنه على ارتحال أحبته

أيَـــذْري الرَّبْـعُ أيَّ دَمٍ أراقَـــا وَأيَّ قُلُوبِ هذا الرّكْبِ شَاقَا

لَنَـــا ولأهـــْلِهِ أبَـــداً قُلُـــوبٌ تَلاقَى في جُسُومٍ ما تَـلاقَى

ومَا عَفَتِ الرّيـاحُ لَهُ مَحَلاً عَبـرَتي عجبٌ عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمِ وَسَاقَـــا

فَلَيْتَ هوَى الأحبّةِ كانَ عَـــــــدلاً فَحَمّلَ كُلّ قـــلبٍ ما أطَاقَا

نـــَظَرْتُ إلَيْـــهِمِ والعـَينُ شَـــكْرَى فَصارَتْ كُلّهَا للدّمعِ مَـــاقَا[14]

يصـور لنا المتنبي مافي قلبه من ألم وكبد وحزن ،ولقد برع في تصـوير نفسيته الحزينة وتصويره لهذا الربع الذي هيج فيه الآلام والأحزان لما رآه خالياً من أحبته فكأنه قد سفك دمه ، لأنه جدد عليه أحزانه بذكر أحبته، ثم يأخذ المتنبي في سـرد أحزانه نادبا فهو هنا لايحمل الرياح أي لائمة ولكن اللوم يعود إلى الحادي وإلى السائق الذان ساعدا القوم والأحبة على فراق الربع، ثم يبين الدرجة العظيمة من حبه وعشـقه لمحبوبته فاتهم الهوى بظلمـه لـه لأنـه حمل قلبـه مـا لايطيقـه ولا يتحملـه من ألم الفراق، حتى اغرورقت عيناه بالدمع عند ارتحالهم حتى صارت كالسيل الدفاق بالماء.

2- شكوى الزمان

عبر المتنبي كثيراً في أشـعاره عن حوادث الدهر والزمان محملاً أياه كل ماحدث له من مشـاق ومتاعب في الحياة وإن كان هناك نهي عن سـب الدهر، وكثيرا مانسـمع من الناس لوم الزمان ولعل" إحسـاس الإنسـان العربي المسـتمر بأن حياته ترتبط ارتباطا وثيقا بالدهر بث فيه القلق

(2)المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 1345/3(البسيط)

(1)المتنبي،ديوان، بشرح الواحدي 1189/3(الوافر)

،وجعله يترقب في كل آن نزول بلاء به، أووقوع مصـاب عليه، وخاصـة أن حياته كانت بأسـباب المخاطر والمهالك، ولم يكن في اسـتطاعته قطعا أن يتنبأ بما يخبئه المستقبل منها"**(15)**

وكان للمتنبي النصيب الأكبر من شكوى الزمان

ومن ذلك قوله:

أذاقَني زَمَني بَلْوَى شَرِقْتُ بها لَوْ ذاقَها لَبَكَى ما عاشَ وانتَحَبَا[16]

هنا يصـف المتنبي أن الزمان أصـابه بالبلوى الذي أصـبته بالشـرقة التي تؤدي به إلى الموت، والتي لوذاقها المهجو لعاش حياته كلها بكاء ونحيباً.

ومنه قول الدهر:

فَمَا تَرَجّى النّفوسُ مِنْ زَمَنٍ أحْمَدُ حالَيْهِ غَيرُ مَحْمُودِ[17]

يقول سـاخطا على الزمان متشـائما شـاكياً بأنه مالذي يأمله المرء ويرجوه من زمن أحسن أحواله غير محموده .

ثم يبين المتنبي تغير الزمان وتبدل أحوال الناس فيه فيقول:

إنّا لَفي زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بِهِ من أكثرِ النّاسِ إحْسانٌ وَإجْمالُ[18]

يرى المتنبي أن زمانه زمن عجيب فهو زمن أن تركك الناس بدون تقبيح أوتجريح فهذا إحسان منهم وإجمال، وهذا دلالة على كثرة إساءة المسيئين في هذا الزمان.

ومن شكواه من الزمان أيضاً يقول:

أفاضِلُ النّاسِ أغراضٌ لَدى الزّمَنِ يَخلُو مِنَ الهَمّ أخلاهم من الفِطَنِ

وإنّما نَحْنُ في جيـلٍ سَـواسِيَةٍ شَرٍّ على الحُرّ من سُقْمٍ على بدَنِ[19]

(2)عبدالغني أحمد زيتوني: الإنسان في الشعر الجاهلي ص469، مراكز زايد للتراث والتاريخ، العين،2001، وانظر نفسه: ص477

(3)المتنبي،ديوان، بشرح الواحدي 509/1(البسيط)

(4)نفسه: 3 /1205(المنسرح)

(1) المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 4 /1902(البسيط)

(2)نفسه: 2 /758 (البسيط)

يرى المتنبي أن أفاضل الناس هم المعرضون لنوائب الدهر ومصائبه فهم في حزن مستمر لفطنتهم، أما الذي لايفطن فهو الخالي من الهم والحزن لخلوه من الفطنة والبصيرة.

ومن شكواه من الزمان أيضا مغالته في هذين البيتين فيقول:

أذُمّ إلى هذا الزّمانِ أُهَيْلَهُ فأعْلَمُهُمْ فَدْمٌ وأحزَمُهمْ وَغْدُ

وأكرَمُهُمْ كَلْبٌ وأبصرُهُمْ عمٍ وأسهَدُهُمْ فَهدٌ وأشجَعُهم قِرْدُ[20]

ففي هذين البيتين أقحم الزمان وبين أنه يعيب أهيل هذا الزمان فقد صغر شأنهم تركيباً ولفظا، وصغر من شأنهم هجاء وقدحاً، فأعلمهم عنده عييٌ، وأحزمهم وغد، وأكرمهم كلب وأبصرهم أعمى، وأكثرهم سهاداً ينام نومة الفهد المشتهر بالنوم ، وأشجعهم قرد ، وهذا سب صريح وتجريح قبيح من المتنبي.

ومن الشكوى الزمان أيضاً يقول

أتَى الزّمَانَ بَنُوهُ في شَبيبَتِهِ فَسَرّهُمْ وَأتَيْنَاهُ عَلى الهَرَمِ[21]

يرى المتنبي أن الزمان كان شاباً في الأمم السابقة قويا نشطا نافعا ولذلك سر أبناء هذه الأزمنة وتمتعوا به، وحينما وصل إلى وقت المتنبي كان قد أصابه الهرم فلم يجد المتنبي منه مايسره وينفعه.

ومنه قوله:

صَحِبَ النّاسُ قَبلَنا ذا الزّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِن شأنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلّوْا بِغُصّةٍ كُلّهُمْ مِنْهُ رُبّمَا وَإنْ سَرّ بَعْضَهُمْ أحْيَانَا

رُبّمَا تُحسِنُ الصّنيعَ لَيَالِيهِ وَلَكِنْ تُكَدّرُ الإحْسَانَا

وَكَأنّا لم يَرْضَ فينَا برَيْبِ الدّهْرِ حتى أعَانَهُ مَنْ أعَانَا

كُلّمَا أنْبَتَ الزّمَانُ قَنَاةً رَكّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنَانَا[22]

يذكر المتنبي أن الناس من قبله عاشوا الزمان فعانوا منه كما عانا المتنبي منه، وذاقوا مرارة أيامه وإن سر بعضاً منهم أحيانا، ولكن إحسانه هذا

(3)نفسه: 2 /860(الطويل)

(4)المتنبي،ديوان، بشرح الواحدي 1933/4(البسيط)

(1) المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 4ص /1801(الخفيف)

لايدوم لأن من طبيعة الزمان الكدر بعد الإحســـان، ثم يذكر المتنبي أن أحدهم يؤذيه ويعين عليه الزمان ولايكتفي بالزمان وحده، فهو مداد لهذا الزمان ومعينه على المتنبي على حد قوله.

ومن إســاءة المتنبي وتجاوزه وصـف الدهر بأنه صـاحب خبيث لأّنه يخالف الإنســان في كل رغباته، فكأّنه يعرف ما يريده الشـاعر، ويحبه، فيعمل عكسه وهذه نظرة رجل قليل العلم بأمور الدين.فيقول:

وأحْسَبُ أنّي لوْ هَوِيتُ فِراقَكُمْ لَفارَقْتُهُ والدّهرُ أخبثُ صاحِبِ[23]

ومنه قوله:

لمّا رَأينَ صُرُوفَ الدّهرِ تَغدُرُ بي وَفَينَ لي وَوَفَتْ صُمُّ الأنابيبِ[24]

يصـــف المتنبي الزمـان أوأهل الزمـان بـالغدر ولم يوف لـه إلا الخيـل والرماح.

ومن إساءته للدهر أيضا يقول:

مَن خَصّ بالذّمّ الفراقَ فإنّني مَن لا يرَى في الدهر شيئاً يُحمَدُ[25]

يتعجب المتنبي من هؤلاء القوم الذين يذمون الفراق وحده، لكن المتنبي بنفسيته الشاكية المتشائمة يذم الزمان كله بما فيه من منغصات وأحداث.

3- شكوى الشيب والهرم

بدا تأثر المتنبي بالشــيب بحديثه عنه لأنه علامة من علامات تبدل أحوال المرء من الصحة إلى المرض ومن القوة إلى الضعف وفي ذلك يقول:

وَقَد أراني الشبابُ الرّوحَ في بَدَني وَقد أراني المَشيبُ الرّوحَ في بَدَلي[26]

فيرى المتنبي أنه كان حي لما كان شـــابا ، فلما تبدل حاله وصـــار كبير السن فقد روحه فلقد تركته وحلت في شاب آخر، وهذه مبالغة فالأرواح لا تحل في غير أجسادها.

ومن شكوى الشيب والهرم يقول:

---

(2) نفسه،947/2 (الطويل)

(3)المتنبي،ديوان، بشرح الواحدي 1725/4(البسيط)

(4) نفسه، 857/2 (الكامل)

(1)المتنبي ديوان، بشرح الواحدي1346/3(البسيط)

وما ماضي الشّبابِ بمُسْتــرَدٍّ ولا يـــــوْمٌ يَمُرّ بمُسْتــعادِ

متى لحظَتْ بَياضَ الشّيبِ عيني فقد وَجَدَتْهُ منها في السّــوَادِ[27]

ينظر المتنبي إلى الأيام والشباب والشيب نظرة المتأسف المتحسر على أيامه وشبابه الذيْن مضيا فهو يخبرنا أن الشباب إذا مضى فلن يعود مرة أخرى كذلك اليوم الذي يمضـــي لن يعود، وهو حينما يرى بياض الشيب يعلو رأسه يظهر هذا البياض في سواد عينيه حتى يصيبه بالعمى فبياض الشعر عنده هو العمى.

وعبر عن كراهية الشيب بقوله:

رَضُوا بكَ كالرّضَى بالشّيبِ قسراً وقد وَخَطَ النّواصِيَ والفُرُوعَا[28]

يشبه المتنبي صبر الأعداء على الذل بين يدي الممدوح بصبر المرء على الشيب كرها **ومن ذلك قوله**

زِيادَةُ شَيْبٍ وهيَ نَقصُ زِيادَتي وقُوّةُ عِشقٍ وهيَ من قُوّتي ضُعْفُ[29]

يشتكي المتنبي من الهرم والشيب فكلما زاد شيبه زاد نقص نفسه وقوته، كذلك كلما ذادت قوة العشق عنده ضعفت قوة البدن لما يفعله العشق بأهله.

ومن ذلك قوله:

مُشِبُّ الذي يَبكي الشّبابَ مُشيبُهُ فكَيفَ تَوَقّـــيهِ وبـــانِيهِ هادِمُـــهْ

وتَكـمِلَةُ العَيشِ الصبا وعقيبه وغائِبُ لَوْنِ العــارِضَينِ وقــادِمُهْ

وما خَضَبَ النّاسُ البَياضَ لأنّهُ قَبيحٌ ولكِنْ أحْسَنُ الشَّعرِ فاحِمُهْ[30]

يسلي المتنبي من يبكي على فقد شبابه مذكراً إياه أن الذي أعطاه الشباب هو الذي أخذه وهدمه وهو الله فلا حيلة للمرء في إمساك الشيب وإبعاد المشيب عنه، ثم يردف قائلاً أن كمال العيش وقوته في الصبا والشباب ثم

(2) نفسه، 452/1 (الوافر)

(3)المتنبي،ديوان، بشرح الواحدي 477/1(الوافر)

(4) نفسه، 2ص/529 (الطويل)

(1) المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 1074/3 (الطويل)

يعقبهما غياب اللون الأسود من العارضين وإتيان المشيب، ثم يسلي نفسه بأن بياض الشعر ليس قبيحا، لكن الأسود أفضل منه.

ومن حديثه عن الشيب أيضا يقول:

رَاعَتْكِ رَائِعـــــةُ البَيَاضِ بمَفْرِقي وَلَوَ انّهَا الأولى لَرَاعَ الأسْحَمُ

لَوْ كانَ يُمكِنُني سفَرْتُ عن الصّبى فالشّيبُ مِنْ قَبلِ الأوَانِ تَلَثُّمُ (31)

نرى المتنبي يبرر لناظره أنه لما نظر إلى بداية ظهور الشـيب في مفرقه وراعه ظهور هذا الشيب أن هذا الروع ليس من البياض فلو كان الأصل في الشـعر البياض ورأي ظهور السـواد فيه لروعه أيضـا، ثم يوضـح المتنبي أنه مازال شاباً لكن ظهور الشيب قبل أوانه قد أخفى شبابه.

4- شكوى الليل

نرى أن المتنبي قد اشتكى الليل الطويل في قصائده حينما تهجره محبوبته فيطير النوم من عينيه من الوجد والغرام والهيام بالمحبوبة.

فهاهو المتنبي يشتكي ليله قائلاً:

لَيَاليّ بَعْدَ الظّاعِنِينَ شُكُولُ طِوالٌ وَلَيْلُ العاشِقينَ طَويلُ(32)

هنا يرى المتنبي أن ليله طويل على الدوام فهو مختلف عن ليل الناس الذي يطول ويقصر حسب الأزمنة والفصول، فهو ليل عاشق طار من جفنه النوم لبعد المحبوبة عنه وتعلق قلبه ووجده بها

ثم يشتكي لطيف المحبوبة قسوة الليل قائلاً:

أَلَمْ يَرَ هذا اللّيْلُ عَيْنَيْكِ رُؤيَتي فَتَظْـهَرَ فيهِ رِقّةٌ وَنُحُـولُ

لَقيتُ بدَرْبِ القُلّةِ الفَجْرَ لَقْيَةً شَفَتْ كَبِدي وَاللّيْلُ فِيهِ قَتيلُ(33)

يحدث المتنبي طيف المحبوبة متغزلاً فيها وفي الوقت ذاته شـاكياً طول الليل،فيبين أن هذا الليل لورأى عين محبوبته لرق من حلاوتها ولنحف وتقاصـرت أجزاؤه، ثم يردف قائلاً أن الليل قد انقضـى، وظهرت بوادر الصـباح التي عمت المكان فشـفى غليل المتنبي فكأن الصـبح قد قتل الليل وقضى عليه.

(2) نفسه،979/2 (الكامل)

(3) المتنبي: ديوان شرح الواحدي 1413/3 (الطويل)

(1) المتنبي: ديوان شرح الواحدي 1417/3 (الطويل)

ومن شكوى طول الليل أيضاً قال:

كأنّ سُهادَ اللّيلِ يَعشَقُ مُقلَتي فبَيْنَهُما في كُلّ هَجْرٍ لنا وَصْلُ[34]

يذكر المتنبي أن الليل يطول عليه والنوم يهرب من مقلتيه من الوجد والغرام إذا هجرته محبوبته، فالليل يطول إذا هجرته ويقصر إذااقتربت منه.

ومن شكواه الليل قال:

بِئْسَ اللّيَالي سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ شَوْقاً إلى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا

أحْيَيْتُهَا وَالدّمُوعُ تُنْجِدُني شُؤونُهَا وَالظّلامُ يُنْجِدُهَا[35]

نرى المتنبي يذم الليالي التي لم ينم فيها لما أخذه من القلق وخفة الشوق إلى الحبيب الذي كان يرقد تلك الليالي لأنه كان سالياً، ثم يذكر أنه قضى الليالي ودموعه تلازمه أما هى فالراحة في ظلام الليل نجدتها.

5- شكوى المرض

من خلال قراءة قصائد المتنبي نرى أنه قد اشتكى من مرضى الحمى وأخذ يبث شكواه وألامه وأوجاعه منها بصورة المحبة التي تعشق حبيبها عشقا بالغاً ولاتريد مفارقته ولا الرحيل عنه إذا أتته إلا بصعوبة فائقة، فأخذ من خلال هذه القصيدة الرائعة يبين المشقة البالغة التي لحقته وكيف كان يداهن هذه الحمى ويسترضيها ولكنها كانت تفعل ماتريده بدون رحمة أوهوادة مع أنها تأتيه على استحياء.

ففي هذا الشأن يقول:

وَزَائِرَتي كَأنّ بهَا حَيَاءً فَلَيسَ تَزُورُ إلاّ في الظّلامِ

بَذَلْتُ لهَا المَطَارِفَ وَالحَشَايَا فَعَافَتْهَا وَبَاتَتْ في عِظامي[36]

صور المتنبي الحمى بالمرأة العاشقة التي تزور صاحبها في الليل حياء منها وخجلاً من أن يراه أحد من الناس ، لكنها حينما انفردت بالمتنبي توغلت توغلاً كبيراً في جسده وبلغت منه مبلغاً عظيماً ، فما زال المتنبي يداهنها ويراودها ويستعطفها أن لا تقرب جسده فهو لايتحملها فبذل لها

(2) المتنبي: ديوان شرح الواحدي 261/1 (الطويل)

(3) المتنبي: ديوان شرح الواحدي 99/1 (المنسرح)

(1) المتنبي: ديوان بشرح الواحدي 1 /484 (الوافر)

المفارش والأغطية لتسكنها بدلاً منه فأبت ورفضت إلا أن تسكن في عظام المتنبي وعروقه .

وانظر كيف صور طول مرضه ورقدته فقال:

وَمَلّنيَ الفِرَاشُ وَكانَ جَنبي يَمَلُّ لِقَاءَهُ في كُلّ عامِ

يَضِيقُ الجِلْدُ عَنْ نَفَسي وَعَنها فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السّقَامِ(37)

يلفت المتنبي أنظارنا إلى أن مرضه قد طال به وألامه وأوجاعه ظلت مستمرة معه إلى وقت طويل، حتى أن فراشه قد ملَّ من طول بقاءه عليه وملازمته له، وكان المتنبي في السابق يجفو فراشه هذا مالّاً منه بسبب أسفاره ، والحمى حين تسكن العظام والأضلاع تجعل الإنسان طريح الفراش فتتراكم عليه العلل والأسقام فتطول مدة المرض:

ثم يصور حالته النفسيه والعضوية في مرضه فيقول:

قَليلٌ عَائِدي سَقِمٌ فُؤادي كَثِيرٌ حَاسِدي صَعْبٌ مَرَامي

عَليلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القِيَامِ شَديدُ السُّكْرِ مِنْ غَيرِ المُدامِ

أخذ المتنبي يبث أحزانه وألامه، ففي هذا المرض الشديد لم يأت له إلا القليل من الزوار لأنه غريب لا يعرفه الكثير وهذا مما يزيد الألم النفسي فالمصائب والأمراض تهون إذا وجد المرء من يسليه ويخفف عنه بزيارته له ومشاركته في مصابه ولذلك اشتكى وجع قلبه وألم فؤاده، ثم يذكر أنه مع مصابه هذا فإن حساده كثيرون وذلك لتفوقه ونبوغه. فقد استطاع المتنبي من خلال شكواه، أن يقرن الهموم العضوية بالهموم النفسية، حين اشتكى من قلة الزائرين، ومرض القلب ووفرة الحساد، ومطالبة الصعاب، التي زادت الحمى في انكسارها وتمزيقها.

ثم يتابع تصوير مشهد الحمى معه فيقول:

إذ مافارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام

كأنّ الصّبْحَ يَطرُدُها فتَجرِي مَدامِعُهَا بأَرْبَعَةٍ سِجَامِ

أَرَاقِبُ وَقْتَهَا مِنْ غَيرِ شَوْقٍ مُرَاقَبَةَ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ

وَيَصْدُقُ وَعْدُهَا وَالصّدْقُ شرٌّ إذا أَلْقَاكَ في الكُرَبِ العِظامِ(38)

(2) نفسه،4 /1816 (الوافر)

(1) المتنبي: ديوان شرح الواحدي 1 /484 (الوافر)

فالحمى متى فارقت المتنبي غسَّـلته من خلال العرق، وكأنه مقيم على مايوجب الغســـل لكن في الحرام ،ثم يأتي الصـــبح فيجد هذه الحمى مع المتنبي فيطردها فتجري مســـرعة من أمامه تاركة المتنبي ثم تأخذ في البكاء لفراقها له، ثم يظل المتنبي يترقب مجيئها ترقب الخائف الوجل لا ترقب العاشـق المنتظر فتأتيه في موعدها ولاتخلفه في وقت المسـاء فهي صـادقة في وعدها بأنها سـتعود إليه في المسـاء ولكن صـدقها هذا يأتيه بالكُربات العظيمة والألام الجسيمة .

ثم يردف قائلاً:

جَرَحْتِ مُجَرَّحاً لم يَبقَ فيهِ مَكانٌ للسّيُوفِ وَلا السّهَامِ

ألا يا لَيتَ شِعرَ يَدي أتُمْسِي تَصَرَّفُ في عِنَانٍ أوْ زِمَامِ(39)

يذكر المتنبي أن جسـده من كثرة جروح السـيوف والرماح فيه لم يبق فيه مكان لغيرها، ثم يسـأل المتنبي نفسه أبعد هذا المرض الشديد هل أستطيع أن أقبض على عنان فرسـي أوزمام ناقتي وأسـافر وأتجول في البلدان كما كان دأبي من قبل.

وقد أكد المتنبي كثرة الأسقام والعلل التي كانت به ، فقد ذكر في موضع آخر أنه كان ذا أسقام فلم يترك المرض شعرة فيه إلا وأصابها فيقول

ومن جَسَدي لم يَترُكِ السّقمُ شعرَةً فَمَا فَوْقَها إلاّ وفيها لَهُ فِعْلُ(40)

وبهذا يكون المرض من خلال شكوى المتنبي، قد ساهم في بوح المتنبي بمشـاعره وأحاسـيسـه والتي جمعت بين الشـكوى العضـوية من خلال آلام الجسد والشكوى النفسية من خلال آلام النفس والروح.

6 نتائج البحث

- ظهرت في حياة أبي الطيب في مختلف مراحلها حالات من التوجع والحزن والشكوى مما كان له أثر كبير في التغير المستمر في أطوار حياته مما جعله دائما في صراع مع منغصات الحياة ومحاربة الآلام والأحزان.
- أظهر المتنبي نفسيته الحزينة على فراق الأحبة للطلل، فإن كان هذا الطلل يملأ نفسيته غما وحزنا وضيقاً لارتحال الأحبة عنه، إلى

(2) نفسه،1 /484 (الوافر)

(3) المتنبي: ديوان شرح الواحدي 44/1 (الطويل)

أنه في الوقت ذاته يحن ويحب آثار المحبوبة فهو يفدي هذا الطلل الخالي من أحبته بروحه لأنه أثر من آثارهم ومقر الأيام والليالي المبهجة السعيدة.

- يرى المتنبي أن زمانه زمن عجيب فهو زمن أن تركك الناس بدون تقبيح أوتجريح فهذا إحسان منهم وإجمال، وهذا دلالة على كثرة إساءة المسيئين للمتنبي في هذا الزمان.
- يرى المتنبي أن ليله طويل على الدوام فهو مختلف عن ليل الناس الذي يطول ويقصر حسب الأزمنة والفصول ، فهو ليل عاشق طار من جفنه النوم لبعد المحبوبة عنه وتعلق قلبه بها.
- بدا تأثر المتنبي بالشيب بحديثه عنه لأنه علامة من علامات تبدل أحوال المرء من الصحة إلى المرض ومن القوة إلى الضعف فينظر المتنبي إلى الأيام والشباب والشيب نظرة المتأسف المتحسر على أيامه وشبابه الذيْن مضيا.
- إشتكى المتنبي من مرضى الحمى وأخذ يبث شكواه وآلامه وأوجاعه منها بصورة المحبة التي تعشق حبيبها عشقا بالغاً ولاتريد مفارقته ولا الرحيل عنه إذا أتته إلا بصعوبة فائقة.

المصادر والمراجع

1- عبد الغني أحمد زيتوني: الإنسان في الشعر الجاهلي ص469، مراكز زايد للتراث والتاريخ، العين،2001م.
2- المتنبي: ديوان شرح الواحدي، تحقيق د. ياسين الأيوبي، د. قصي الحسين، دار الرائد العربي، بيروت ، لبنان ط1 1999م
3. محمد عبدالرضا قاسم، ثنائية الشكوى والتحدي في شعر المتنبي، مجلة جامعة ميسان كلية القانون 2014م.

Scientific Journal of Faculty of Arts 10 (2) 2021, 103 - 120
المجلة العلمية لكلية الآداب
https://artdau.journals.ekb.eg/

The complainant self with Al-Mutanabbi

Reda Magdy Mohamed eldsoky
PhD student - Department of Arabic Language - Faculty of Arts - Damietta University

Abstract

It seemed in Abi Al-Tayeb's life with various stages, a state of pain, sadness and complaints, which had a great impact on the continuous change in his life stages, which made him always in struggle with the pains of life and fight against the pain and sorrows, and these incidents were motivating him to reach the dreams that he was seeking and achieved some of them as well.

Al-Mutanabbi's complaints were represented in the complaint of places with devoid from the sweethearts, the complaint of time, night, graying and disease.Among his complaint to the place: Al-Mutanabi is shown his sad psyche for the parting of the sweethearts to the ruins , Although this ruin is used to fill his soul with gloom, sadness and distress due to leaving of the sweethearts from it but the fact at the same time he longs and love the traces of sweethearts and he redeem this ruin that empty from the sweethearts with his soul because it is a trace from their traces and the place of happy and joyful days where she was living and dwell in it, and so if she went out, she would return to it again as the sun goes to set and returns again to its sunrise.Among his complaint of time: Al-Mutanabbi believes that his time is a wondrous time, a time if people let you without ugly or offending, this is considered a generosity and kindness from them, and this is an indication of the large number of offenders to the Mutanabbi in that time.

Keywords : Al-Mutanabbi

Article history:
Received 29 March 2021
Received in revised form 19 May 2021
Accepted 29 May 2021